

وحدة الوجود

بين الفلسفة والدين

للأستاذ محمد يوسف موسى

تناول في هذه الأيام الأخيرة مذهب وحدة الوجود بعض كتاب الرسالة وقرائها الناهيين الأفاضل ، بمناسبة « رسائل التعليقات للرماني » وقدما الأستاذ دريني خشبة ، وكل عرض لهذا المذهب من الناحية التي يراها جديرة بالاهتمام . وقد رأى أحدهم ، وهو الأستاذ زكريا إبراهيم المعروف باصطناع الدقة في التعبير والحكم ، أن من التعسف والخطأ والمجازفة أن يقال عن هذا المذهب إنه إلفك ينطوي على كثير من الأراجيف وإنه لا يتفق وعقائد الدين الحقّة

لذلك أرجو أن يكون لي التقدم بهذه الحكمة ؛ لعلها تكشف بعض الحقيقة ، أو تساعد على الوصول إليها

الذهاب إلى فكرة « وحدة الوجود » ليس إلا أحد الحلول أو الأفهام التي حاول بها المفكرون والفلاسفة في القديم والحديث أن يحلوا أو يفهموا مسألة صلة الله بالعالم ، وقد أنتج التفكير في هذه المسألة كثيراً من المذاهب التي وعها الزمن وسجهاها تاريخ الفلسفة

وعبي الدين بن عربي من زعماء القائلين بهذه الفكرة ، وكان له من أجل ذلك أنصار وخصوم ؛ هؤلاء يذفونهم بالزندقة والكفر ، وأولئك يحملونه الشيخ الأكبر وأحد أولياء الله وأصفياه ، ولسكل أمارات ودلائل ، ولا يتسع المقام لذكر ذلك أو الإشارة إليه . إلا أنني أشير إلى أن عبد الوهاب الشعراني ، وهو من أكبر أنصار الشيخ ، حاول أن يوفق بين الشريعة وبين ما ورد في مؤلفات الشيخ مما لا يتفق والدين ، فلم يستطع إلى ذلك سبيلاً ، فلجأ أخيراً إلى حذف ما لا يتفق وما عليه أهل السنة والجماعة من كتاب الفتوحات ، كما بروى ذلك بنفسه في مختصره لهذا الكتاب ، وتلك لعمري خطة إثمها أكبر من نفعها ! ولكن ، ما معنى هذه الفكرة « وحدة الوجود » التي تؤدي إلى التكفير في رأي كثير من الناس ؟ هي ، كما يتبين من كتب ابن عربي نفسه ، القول بأنه ليس هناك إلا وجود واحد هو الله والعالم كله مظاهره ، أو ببساطة أخرى ليس جميع الممكنات

إلا مظاهر للحق (الله) يتجلى فيها ولولاه لكانت عدماً^(١) ومعنى هذا أن الحقيقة التي هي الوجود الحق هي ذاته تعالى : وهي في عالم الحيوان حيران ، وفي عالم النباتات نبات ، وفي عالم الجناد جناد ؛ فالله منبث في كل شيء من سماء وأرض وشجر وحيوان ، وما إلى ذلك كله مما خلق حتى مجل بني إسرائيل هو بعض مجالي الله ومظاهره ، ولهذا صح لومى عليه السلام أن يقول للسامري : « وانظر إلى إلهك »^(٢)

هكذا يقول ابن عربي ويتناسى تنمة الآية : « وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه كما كفاً لتجرّفته ثم لنفسه في اليم نسفاً » مما يدل دلالة واضحة لا تحتمل الجدل والمكابرة على ما في خطاب مومسي عليه السلام للسامري من تهكم به ربما صنع !

وليس هذه النصوص متفردة في مؤلفات ابن عربي ، إنها مليئة بكثير أمثالها الدالة على هذه النظرية الغامضة الصعبة التصور والمعيرة الفهم ، والبعيدة عن العقل والدين فيما أرى ، ويرى كثير غيري إنها لا تتفق مع الدين الذي يرى وجود موجودين - الله والعالم - متباينين في كل شيء ومنفصلين تمام الانفصال ، أحدهما وجوده رهن بإرادة الآخر ، ولا تتفق كذلك معه بحال ما ، بما دام الدين يتره الله عن أن يكون أشرف مخلوقاته مجلي ومظهراً له ، فكيف بمجل بني إسرائيل وما دورته

ولا تتفق كذلك مع العقل الذي يرفض أن يؤمن بشيء بمجرد عن إدراكه على أي نحو كان ، كما أنه لا يرى ضرورة للايمان بها في سبيل فهمه الله والعالم والعلاقة بينهما

وأمل رفض العقل والشرع لفكرة وحدة الوجود هو الذي جعل بعض المفتونين بابن عربي يبرؤونه من القول بها أو الذهاب إليها ؛ أمثال السراج البلقيني والسيوطي والشمراني وعبد الغني النابلسي^(٣) ، ولكن كيف يمكن هذا ، والفتوحات والفصوص قامة على هذا المذهب ولا يستطاع تأويلهما جميعاً !

قد يقبل الإغماض في عبارة يجري بها لسان صوفي أخذه الوجد ، وارتفع به الحال ، وشاهد ما لا نشاهد ، فقال في لحظة من لحظات لتجلى والمشاهدة : أنا الحق - مثلاً ! - ولكن ليس من القبول الإغماض في نظرية قام عليها مذهب ، وامتلأت بها كتب ، وسجلها صاحبها وهو هادي النفس بحس بما يقول ويقدره قبل أن ينطق به !

(١) الفتوحات ج ٢ : ٢١٥ - ٢١٦ (٢) شرح الفصوص ص ٢٣٦ وما بعدها (٣) كتابي : نلسفة الأخلاق في الإسلام وصلاتها بالفلسفة الأخرى ص ١٩٦